جامعة البصرة
كلية الآداب
قسم اللغة العربية

الإعجـــاز القرآنـــي عنـــد المـــاوردي

أ. م. د. ليث داود سلمان
جامعة البصرة – كلية الآداب – قسم اللغة العربية

2019م

ثقافة الأمصار وإرثها الحضاري يعزز الثقة بروابط النسب، ويكشف قوّة الانتماء بالجذور التاريخية، فهي بحقيقتها مجد تليد يرسم أطر الفكر، ويصنع مناخات المعرفة، ويُنتج هوية شخصية نافذة في الأمم، وفاعلة في الأجيال، تستمد قيموميتها من تلك المبادئ التي أرسى دعائمها الرواد الأوائل من العلماء وأهل الدربة الذين خبروا الفنون المتنوعة، وغاروا في أعماقها بحثاً وتنقيراً، وكان صاحبنا الماوردي البصري من جهابذة الفكر، وأهل النظر– الذين برعوا في مجالات متعددة وميادين متنوعة – فتوغل في متن المعرفة، وسبر أغوارها، فكان نتاجه غمراً، وعطاؤه ثرّاً، أسهم في إثراء الثقافة ومفردات المعرفة، وعكس بمرجعيته المدنيّة اشتراطات الازدهار الحضاري والرقي الفكري الذي يمكن أن تبلغ حاضرة إسلاميّة دون غيرها، ومن جميل اشتغالاته تلك المقاربات العقدية التي تجمع بين مطلبين مهمّين في العلوم الإسلامية، وهما التوحيد والنبوة، عبر تحرير مفهوم الإعجاز الذي يمثل سندا لإثبات النبوّة ومن ثمّة صحّة السفارة الإلهيّة، وكمال الفعل الإلهي، من حيث نسبته إليه، وإضافته إلى ذاته.

يمثل الإعجاز عند الماوردي مسلكاً في البرهان، يوجد الحجة، وينتج الإيقان، لأنّه يقوم على المعاينة والتجاوز، يعاين الفن الرائج، والثقافة السائدة، ويتجاوزها باقتدار واحتراف، بما لا يدع مجالاً للشك والريبة، وفي هذا يكون الدليل عقلياً يتكئ على مبتنيات وجدانيّة لا يتنكّر لها العقل، ولا سبيل إلى زحزحتها؛ لأنّها تنطلق من مسلّمات شاخصة في ثقافة الأمّة وكينونتها.. إنّه يطرح النبوّة بوصفها هويّة وجوديّة مستضاءة بأعلام شتّى وأدلّة متباينة.

سيرته

هو عليّ بن محمّد بن حبيب المعروف بالماوردي، وهذا اللقب متأتٍ من نسبة العمل إلى والده الذي كان يبيع ماء الورد[1]. كنيته أبو الحسن، وقد لقّب أقضى القضاة[2]، ولد في البصرة بعد منتصف القرن الرابع الهجري، من أسرة غير ميسورة، كما هو المتبادر من عمل والده. بدأت بواكيره العلميّة فيها، فتلقّى من أبي القاسم الصَّيمري فيها، ثمّ ارتحل إلى بغداد، مواصلاً بحثه المعرفي، فاتّصل بالشيخ أبي القاسم الإسفراييني[3]، وظلّ يختلف إلى حلقات العلم يأخذ من الفقهاء والمحدّثين واللغة كأبي محمّد الباقي والحسن بن علي الجبلي وأبي عبد الله الأسدي الأزدي النحوي[4]، حتّى أصبح شيخاً بارعاً في علوم جمّة، يلتحق به روّاد العلم وطلّاب البحث في مجالسه التي كان يعقدها في بغداد، وقد تولّى ولاية القضاء في بلدان كثيرة[5]، وهذا يدلّ على مكانته الاجتماعيّة وبراعته الفذّة، ومقدرته الفقهيّة،، وقد توفي في بغداد

سنة 450هـ، يوم الثلاثاء من ربيع الأوّل بعد عمر بلغ ستاً وثمانين وصلّى عليه الخطيب لبغدادي[6]، وبهذا التحديد استنتج الدكتور قاسم حسن أن تكون سنة ولادته في 364هـ[7].

وقد ترك لنا الماوردي إرثا حضاريّاً متنوّعا في الفقه والكلام والتفسير وأصول الفقه والأدب والسياسة وغيرها، منها: الحاوي والاقناع في الفقه، والنكت في التفسير، وأدب الدنيا والدين والأحكام السلطانيّة، وقانون الوزارة وسياسة الملك[8]، وأعلام النبوّة وتسهيل النظر في سياسة الحكومات، والأمثال والحكم[9]، وله كتاب في النحو ذكره الحموي وقال إنّه رآه، وهو بحجم الإيضاح أو أكبر[10]، وفي علوم القرآن له أمثال القرآن الكريم، وله البيوع والكافي في مختصر المزني[11].

وهو مع مذهبه الشافعي نجد لديه توجهاً عقلياً، يلتقي فيه مع المعتزلة في بعض المباني، وهذا المنحى حُمل عليه، فقال الذهبي عنه: ((صدوق في نفسه، لكنّه معتزلي))[12]، وكان الحموي يقول: ((وكان عالماً بارعاً متفنناً شافعيّاً في الفروع ومعتزليّاً في الأصول على ما بلغني والله أعلم))[13]، وقد تكفّل الدفاع عنه بعض الباحثين، فنفى أن يكون معتزليّا، وقد عزا هذا التّهام إلى الجمع بين الشرع وسلطان العقل في تقرير الكثير من المسائل الشرعيّة، واكّد أن هذه التهم تمرر إلى كلّ من يتحرر في توجهه ورؤاه، ويتكئ على العقل والمباني الفكريّة[14].

ومن تلاميذه: الخطيب البغدادي صاحب التاريخ، وأحمد بن الحسين المعروف بابن الباقلاني، وأبو الفضل الهمداني المعروف بالمقدسي، وعلي بن الحسين بن عبد الله الربعي، ومحمّد بن أحمد بن عبد الباقي الربعي الموصلي، وأحمد بن عبد الله بن محمّد المعروف بابن كادش، وغيرهم[15].

الإعجـاز لغـة

تُلاحق المنظمة اللغوية هذه المادّة في كلام العرب ومن لسان مستعمليها، بمجالاتها التداوليّة وصورها البنائيّة،

ففي جمهرة ابن دريد (321هـ):

((العجز: معروف، ويقال عجزٌ أيضاً وأمرٌ أيضاً وامرأة عجاز ولا يقال للرجل أعجز وإنما يقال آلى.

وَعَجز الرجل عن الشيء يعجِز، وعَجَزتِ المرأة تعْجُز عجزاً، إذا صارت عجوزاً، وعجِزت تعجَز عجوزاً، وكذلك الرجل من التقصير...))[16].

وفي محيط الصاحب بن عباد(385هـ):

((العَجْزُ: نَقِيْضُ الحَزْم، عَجَزَ عَجْزاً وعُجُوْزاً وعَجَزَاناً، وهُذَيْلُ وَحْدَها تَجْمَعُ العَاجِزَ على العَواجِزِ. ويُقالُ: لا تُلِثُّوا بِدَارِ مَعْجَزَةٍ ومَعْجِزَةٍ.

والعَجْزُ: مَقْبِضُ القَوْس، والعَقَبُ الذي يُشد به: العِجَازُ، وقد عَجزْتُها. والسهامُ تُسمى بَنَاتِ العَجْزِ. وطائرٌ يَضْرِبُ إلى الصفْرَةِ صَوْتُه كَنُبَاح الكَلْبِ الصغِير، وكَثيرُهُ: عِجْزان.

وعَاجَزَ: ذهبَ ولم يُلْحَقْ. وهو يُعَاجِزُ الى ثِقَةٍ: أي يَمِيْلُ. وعَاجَزْتُه فَعَجَزْتُه: سَابَقْتَه فَسَبَقْتَه. ورَجُلٌ مَعْجُوْزٌ: قَل ما عندَه. ويُقالُ في العَجُوْزِ من النساء: عَجُوْزَةٌ، والفِعْلُ: عَجَزت عَجْزاً وعَجزَتْ وتَعجزَتْ، والجَمْعُ: عُجُز وعَجَائِز. والعَجُوْزُ: الخَمْرُ؛ لِقدَمِها. والجَعْبَةُ. ونَصْلُ السيْف. واسْمُ رَمْلَةٍ. والعَجُزُ: مُؤخرُ الشيء؛ حتى يُقال: عَجُزُ الأمْرِ، ويُقال: عَجُز وعَجْزٌ وعُجْزٌ وعَجِزٌ. وتَعجزْتُ البَعيرَ: رَكِبْتَ عَجُزَه.

وعجزْ دابتَكَ: ضَعْ عليها الحَقِيْبَةَ. والعَجْزُ: الأرْضُ لا تُنْبتُ شَيْئاً. والعَجِيْزَةُ: عَجِيْزَةُ المرْأةِ خاصَّةً، وامْرَأةٌ عَجْزَاءُ، وقد عَجِزَتْ، والجَميعُ عَجِيْزاتٌ، ولا يُقال عَجَائز.

وهي مُعَجَّزَة: ضَخْمَةُ العَجِيْزَة. والعَجْزَاءُ: العُقَابُ في أصْل ذَنَبِها بَيَاضٌ، وقيل: الشَدِيْدَةُ الدّابِرَتَيْن.

ورَمْلَةٌ مُرْتَفِعَةٌ ليس بِرُكام كريْمَةُ المنْبِت، والجَميعُ: عُجْزٌ. والعَجَزُ: دَاءٌ يَأخُذُ في عَجُزِ الدابة. والعِجْزَةُ وابْنُ العِجْزَة: آخِرُ وَلَدِ الشَّيْخ. ووُلدَ لِعِجْزَةٍ: أي بَعْدَ ما كَبِرَ أبوه))[17].

وفي صحاح الجوهري(393هـ):

((العَجُزُ: مؤخرة الشيء يؤنث ويذكر...والجمع أعجاز والعجيزة للمرأة خاصة.

والعجز الضعف. تقول: عَجَزتُ عن كذا أعجزُ بالكسر عَجْزاً ومَعجِزة ومَعْجَزة ومَعْجزاً بالفتح أيضاً على القياس...

وعَجَزت المرأة تعْجُزُ بالضم عُجُوزاً، أي: صارت عَجُوزاً. وعجزت بالكسر تعْجَز عجزاً وعُجزاً بالضم: عظمت عجيزتها.

قال ثعلب: سمعت ابن الأعرابيّ يقول: لا يقال عَجِزَ الرجل بالكسر إلاّ إذا عَظم عَجُزُهُ.

وأَعْجَزْتُ الرجل: وجدته عاجِزاً. وأعْجَزَهُ الشيء: أي فاته.

وعجَّزت المرأة تعجيزاً: صارت عجوزاً.

والتَعجيزُ: التثبيط، وكذلك إذا نسبتَه إلى العَجْزِ. وعاجَزَ فلانٌ، إذا ذهب فلم يوصل إليه. والمعجِزَة: واحدة مُعجِزات الأنبياء. والعَجوز: نصل السيف. والعجوز: رملة بالدهناء...

وتعجّز البعير: ركبت عجزه....))[18].

وفي مقاييس ابن فارس (395هـ):

((العين والجيم والزاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على الضعف والآخر على مؤخّر الشيء.

فالأوّل عَجَز عن الشيء يَعْجِز عَجْزاً، فهو عاجز، أي ضعيف، وقولهم إن العجز نقيض الحزم فمن هذا؛ لأنّه يضعف رأيه، ويقولون: (المرءُ يعجزُ لا محالةَ)، ويقال أعجزني فلان، إذا عجزت عن طلبه وإدراكه، ولن يعجز الله شيء أي لا يعجز الله تعالى عنه متى شاء.

ومن الباب العجوز.... ويقال فلان عَاجَزَ فلان، إذا ذهب فلم يوصل إليه.. وربما حملوا على هذا فسمّوا الخمر عجوزاً، وإنما سمّوها لقدمها، كأنها امرأة عجوز..

أمّا الأصل الآخر فالعجُوز: مؤخر الشيء والجمع أعجاز، حتى انهم يقولون عَجُز الأمر وأعجاز الأمور، ويقولون: لا تَدَبّروا أعجاز أمور ولّتْ صدورها))

والعَجَز داء يأخذ الدابة في عَجُزها. يقال: يقال هي عجزاء والذكر أعجز...))[19].

وفي مفردات الراغب (425هـ):

((والعجزُ أصله التأخّر عن الشيء، وحصوله عند عجز الأمر، أي: مؤخّره، كما ذكر في الدبر، وصار في التعارف اماً للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة))[20].

وفي محكم ابن سيده (458هـ):

((العجز: نقيض الحزم، عَجَز عن الأمر يَعجز. وعَجِز عجزاً فيهما.

ورجل عَجُز وعجِز عاجز. وامرأة عاجز: عاجزة عن الشيء عن ابن الاعرابي.

والمِعْجَزة: العجَز.

قال سيبويه: هو المِعْجِز والمِعْجَز، الكسر على النادر، والفتح على القياس؛ لأنه مصدر..))[21].

وفي لسان ابن منظور (711هـ):

العَجْز: الضعف. والمعَجَزة مفعلة من العجز وهي عدم القدرة، والتعجيز: التثبيط، وكذلك إذا نسبته إلى العجز، والإعجاز هو الفوت والسبّق، ويقال عَجز يعَجِز عن الأمر إذا قصر عنه والعَجُز ما بعد الظهر[22].

وفي قاموس الفيروز آبادي(817هـ):

((العَجْز والمِعْجِز والمِعْجِزة، وتفتح جميعها والعَجَزان محركة.

والعجوز بالضم: الضعف، والفعل كضرب وسمع، فهو عاجز من عواجز.

وعَجَزَت، كنَصَر وكرُم، عجوزاً، بالضم، صارت عجوزاً، كعجّزت تعجيزاً، وعَجِزت، كفرِح، عَجَزا وعُجْزاً: عظمت عجيزتها، أي: عُجُزها.

وأعجزه الشيء فاته. وجده عاجزاً وصيّره عاجزاً..

ومعجزة النبي (ص) ما أعجز به الخصم عند التحدي والهاء للمبالغة..))[23].

والشِقّ البنائي من هذه الأبنية الذي – يرتبط بالبحث – يُحيل على الضعف والقصور، وتبدد القدرة، والفوت من بلوغ المراد، فثمّة عقبة تحول دون إتمام الأمر، وهذه العقبة نوعيّة لا شخصية، تتفاوت من محلّ إلى آخر، فهي من ذاتيات الشي، قال تعالى: ((ويُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا)) النساء28، ودرجتها تختلف باختلاف تمثّلها في الذات بحسب الطبيعة والاستعداد، إذاً، فالضعف حقيقة موجود في جواهر الأشياء.

الإعجاز اصطلاحاً

ظهر هذا العنوان في حقول المعرفة بصورته المفهوميّة مبكراً في الثقافة الإسلاميّة، وأخذ حيّزاً واسعاً من تفكيرهم، وقد اشتدّت العناية به من جهة عقديّة تحرّر مطالب كلامية، تخصّ التوحيد والنبوّة، وأخرى فنّيّة جمالية تكشف الخصائص الأسلوبيّة والقيم التعبيريّة التي ينطوي عليها النصّ، ولا ريب أنّ الارهاصات كانت للجهة الأولى، فكانت اشتغالات النظّام تبتغي الكشف عن الجهة المسؤولة عن إيجاد العجز، في إثبات المرسل، وقريب منه ما فعله الجاحظ في رسالته حجج النبوّة، ولكنّه أخذ منحى آخر عند الرماني والخطّابي والباقلاني والجرجاني، فالتجليات الأسلوبيّة والمزايا التعبيرية، أخذت نصيبها من الظهور في مقارباتهم، وفي هذين المنحيين نلحظ البعد المفهومي، فقد ظهر عند الباقلاني(403هـ) بصياغته الكلاميّة، إذ قال: ((هي أفعال الله تعالى الخارقة للعادة المطابقة لدعوى الانبياء وتحديهم للأمم بالإتيان بمثل ذلك))[24].

ولم أقف فيما تتبعت ـ على تعريف للمعجزة قبل هذا، بل كانت مرتكزاتهم تدور في فلك عناصره المؤلفة له.. ثم أخذت التحديدات بعد ذلك، تعيد تشكيل التعريف بصورة نظمية، وصياغات كلامية، لا تخرج كثيراً عن الأسس والمبادئ التي أشار إليها النص القرآني نفسه.

وقد حدّه **الشيخ المفيد (413هـ)** بقوله: ((هو الأمر الخارق للعادة المطابق للدعوى المقرونة بالتحدي المتعذر على الخلق الإتيان بمثله))[25].

وتكاد تكون فقرات التحديد المفيدي هي المستحوذة على سيرورة المعنى الاصطلاحي، والمهيمن على نسق تأليفه، والظاهر أنّه أفاد مِمّا قدمه سابقوه في الأركان الثلاثة: الخرق والتحدي وترك المعارضة، فأعاد إنتاجها في تحديد مفهومي..

وزاد **البغدادي(429هـ)** قيداً ومعنى يتمم به مفهوم الإعجاز، فقال:

((وحقيقة المعجزة على طريقة المتكلمين ظهور أمر خلاف العادة في دار التكليف لإظهار صدق ذي نبوة من الأنبياء أو ذي كرامة من الأولياء مع نكول من يتحدى به عن معارضته مثله))[26].

فالتقييد هو أنْ تكون المعجزة في دار التكليف وعالم التشريع، والمعنى هو في توسع صدق الدعوة لتشمل الأولياء مع الأنبياء.

وهذا المعنى لم يثبت له قرار، ولم ترسخ له قدم في نسق التعريف، فلم يذهب إليه إلاّ القليل، وبقي رهين الآراء الفردية والتصورات الأحادية التي لا يمكن أن تهيمن، ولكن تبقى من الإشكالات المطروحة في مجال النقد والتقويم.

وقد ساق **الشريف المرتضى (436هـ)** رأيه مجملاً بقوله: ((ومعنى قولنا معجز في التعارف ما دل على صدق من ظهر عليه واختص به))[27].

وقد جعل المرتكزات من شرائطه على النحو الآتي:

- أنْ يكون من فعل الله.
- أنْ ينتقض به العادة المختصة بمن ظهر المعجز فيه.
- أنْ يختص بالمدعي على طريقة التصديق لدعواه [28].

وقد كانت هذه الرسوم شاخصة في تعاطي العلماء الإعجاز قبل الماوردي، فهي فهوم قائمة على معاينة الإعجاز في ضوء الطرح القرآني الذي يذكر التحدّي في أكثر من آية، ويقرنه في إثبات دعوى النبوّة، والإخبار عن نفي المعارضة، ولم تكن قراءة الماوردي بعيدة من هذا الطرح، فقد قدّم لنا المفهوم بمقاربة كلاميّة، فقال: ((وإذا كان حجج الأنبياء على أممهم هو المعجز الدال على صدقهم، فالمعجز ما خرق عادة البشر من خصال لا تستطاع إلّا بقدرة إلهية تدل على أن الله تعالى خصه بها تصديقا على اختصاصه برسالته، فيصير دليلا على صدقه في ادّعاء نبوته إذا وصل ذلك منه في زمان التكليف، وأما عند قيام الساعة إذا سقطت فيه أحوال التكليف فقد يظهر فيه من أشراطها ما يخرق العادة فلا يكون معجز المدعي نبوّة، وإنما اعتبر في المعجز خرق العادة لأن المعتاد يشمل الصادق والكاذب فاختص غير المعتاد بالصادق دون الكاذب))[29].

وأوّل ما يُطالعنا، في المقام، إنّ إيراد المعجز مقرون بحجج النبوّة، يُؤتى به شاهداً على صدق القضيّة، ودليلاً على يقين السبيل، ولا سبيل لإثبات نبوته إلّا بدليل منفصل، تكون له سنخية المنشأ والارتباط، حتّى يكون الاقتران في جهة الانتماء واحداً، يحكي كمال جهة الصدور، فالرسالة والمعجزة من شؤون الغيب، وتدبيره المحكم الرامي إلى العدل والإحسان، وهذه طبيعة القرن في صحّة الادّعاء تُوجب الحجّة، وتلزم اليقين، خلافاً لو كان المؤيّد له من مصدر بشري، يركن فيه إلى حجّته العقليّة، وسبيله البياني، فالدليل يبقى آنياً وفاعليته لا تتجاوز الإطار المكاني والمتلقي الشخصي.

وفي هذا المعجز نجد أن القرن الموجب للصدق غير مأسور للزمان، ولا معقود بالمكان، والمتلقي فيه نوعي، يقبله مهما كان موقعه ودرجة حضوره. وخرق العادة المألوفة والثقافة الرائجة كما أنّها عصيّة على التحدّي ومنيعة على المقاربة، وخارج إطار البعد البشري والمقدرة الإنسانية، نجدها تشمل الرسول عينة، فليس بمقدوره أن يقوم بفعل الخرق استناداً إلى ذاته بمعزل عن التأييد الإلهي، وهذا ما نفهمه من عبارته: لا تُستطاع إلّا بقدرة إلهيّة، وقد ذكر ذلك صراحة بقوله: ((فلو أراد الرسول أن يقول مثله لم يقدر عليه لأنه من البشر إلّا أن يمده الله تعالى بعون منه فيصير قادرا عليه ومعجزا له لو لم يضف القرآن إلى الله تعالى فأما مع إضافته إليه فلا يكون معجزا له ويكون مصروفا عنه لأن ما أضيف إلى الله تعالى يمتنع أن يكون من غيره لدخوله في جملة الكذب ثم يصير القرآن أصلا للشرع ومعجزا للرسول فيجب على الأمة التزام أحكامه وطاعة الرسول))[30]. وفي خرق العادة جانب آخر، وهو التوافق والمحاكاة، وقد كان التحدّي ناظراً إلى هذه المماثلة جهة، وفي ذلك يقول الماوردي: ((ان معجز كل رسول موافق للأغلب من أحوال عصره والشائع المنتشر في ناس دهره، لأن موسى عليه السلام حين بعث في عصر السحرة خص من فلق البحر يبسا وقلب العصا حية ما بهر كل ساحر وأذل كل كافر، وبعث عيسى عليه السلام في عصر الطب فخص من إبراء الزمنى وإحياء الموتى بما أدهش كل طبيب وأذهل كل لبيب، ولما بعث محمد صلى الله عليه وسلم في عصر الفصاحة والبلاغة خص بالقرآن في إيجازه وإعجازه بما عجز عنه الفصحاء وأذعن له البلغاء وتبلد فيه الشعراء ليكون العجز عنه أقهر والتقصير فيه أظهر فصارت معجزاتهم وإن اختلفت متشاكلة المعاني متفقة العلل))[31]، فثمّة سنخيّة بين موادّ التحدّي ومنطلقاته والثقافة الشائعة في ذلك العصر، وهنا يظهر سرّ الاختيار وفلسفته العمليّة. ومفهوم الاختصاص الذي نطق به النصّ يعني العناية واللطف الذي يُرافق الرسالة من حيث هي شأن إلهي، ليس بمقدور البشر زحزحته أو زعزعته، لذا جاءت ناصعة لا يشوبها غموض أو إبهام، تحاكي الفنّ الذي برع به قومه، وأبدعوا في مجاله، فكانت الغلبة تعني صدق المدّعى وصحّة المبتنى، ولزوم الحصول في زمن التكليف، يعني قيامه في النشأة الدنيا،

وهو أمر بدهي، لأنّ تقرير المفهوم مقترن بالمحتوى الذي يُراد إيصاله في عالم التشريع، وذلك المحتوى يُراعي الإنسان ببعده الاجتماعي في دار التزاحم القائم على أساس الجذب والقبض في نيل المأرب وجني الرغائب. إذاً، المشروع الذي يقدّمه الرسول يُنظر فيه من حيثيات ثلاثة: المرجعيات، والمباني والمضمون، والهدف، فهو مشروع منطلقاته غيبيّة، وفي هذا إبعاد للجانب الشخصي من المدّعى، وفي مضامينه ومبانيه، نجد أنّها أنظمة قيمية، وإجراءات تقويميّة تبنى على أساس أخلاقي، وهدفه إقامة المجتمع المثالي القائم على أساس المحبّة والعدل. وهذه من المؤيدات التي توجد الثقة عند المتلقي، وتُزكّي أصل الفكرة قبل أن يقترن بها التحدّي. وبالجملة تتضح المقاربة الكلاميّة للمفهوم عند الماوردي، فهي مسلك مشهور لدى جُلّ المشتغلين في مباحث العقيدة، لأنّها تروم التأسيس العقلي للنبوّات ومرجعيّاتها التوحيديّة، ويغور المصنّف بعيداً في مسائل دقّيّة مفصّلاً ومشقّقاً –كتقديم المعجز على النبوّة، وأقسام خرق العادة، وغير النبوّة من المقامات الإلهيّة لا تحتاج إلى معجزة([32]) – هي أقرب إلى التفلسف والنظر الكلامي. وليس هذا بمستبعد في كلّ من يتحدث عن النبوات بمفهومها العام، ولكنّ لحن الخطاب يتغير إذا ما دخلنا في الخاصّة منها، لأنّ لكل نبيّ مرفقات في سيرورة مشروعه التغييري وعمله الرسالي، وقد اقتضى التكوين المعرفي – الذي عليه أمّة الرسول الخاتم –أن يكون الدستور المنظّم لشؤون حياتهم، والمنهاج الذي يضع مسارات التواصل والتفاعل فيما بينهم، مؤطّراً بصبغة لسانيّة تفوق ما عليه اللسان العربي آنذاك من فصاحة اللفظ وبلاغة المعنى، وإلى هذا المعنى يُشير الماوردي: ((أن المعجز في كل قوم بحسب أفهامهم وعلى قدر عقولهم وأذهانهم وكان في بني إسرائيل من قوم موسى وعيسى بلادة وغباوة لأنه لم ينقل عنهم ما يدرون من كلام مستحسن أو يستفاد من معنى مبتكر وقالوا لنبيهم حين مروا بقوم يعكفون على أصنام لهم اجعل لنا إلها كما لهم آلهة فخصوا من الإعجاز بما يصلون إليه ببداية حواسهم والعرب أصح الناس أفهاما وأحدّهم أذهانا قد ابتكروا من الفصاحة أبلغها ومن المعاني أغربها ومن الآداب أحسنها فخضوا من معجزة القرآن بما تجول فيه أفهامهم وتصل إليه أذهانهم، فيدركوه بالفطنة دون البديهة وبالرويّة دون البادرة لتكون كل أمة مخصوصة بما يشاكل طبعها ويوافق فهمها))[33]، فالوسط الاجتماعي والمناخ المعرفي في ذلك الحين يتطلب الدعم القائم على معاينة القدرات الذهنيّة التي عُرفت عن العرب، حتّى يكون التأييد ناصع البرهان، بليغ الحجّة، ينفذ إلى عقولهم ويتنزّل على مجامع قلوبهم ؛ لأنّه ذات طبيعة موازية لما دربت عليه نفوسهم وخبرته عقولهم، وهذا وحده كافٍ لبيان منزلة الرسالة وما حملته في طيّاتها من علوم ومعارف، وهذا التصوّر يُحيل على مزيّة أخرى في صناعة مفهوم الإعجاز، يمكن أن يُسمى بالأثر الخالد والفاعليّة الامتداديّة المنبسطة في نسيج الأمّة الخاتمة، وفي ذلك يقول الماوردي: ((ان معجز

القرآن أبقى على الأعصار، وأنشر في الأقطار من معجز يختص بحاضره ويندرس بانقراض عصره))[34]، والمعجزة بهذه الكيفيّة من مختصّات الرسالة المحمّديّة، استقلّت بها دون غيرها؛ لما يتضمنه ثقل التبليغ من مضامين سامية ومطالب عالية، انفردت بها أمّة الرسول محمد.

أنواع الإعجاز عند الماوردي

ليس للإعجاز وجهٌ واحدٌ عند الماوردي في خروجه عن المألوف، فقد ذكر عشرين وجها، وفصّل فيها تفصيلاً دقيقاً، مستحضراً الإيرادات والشبهات المحتملة التي يمكن أن تُطرح من لدن المعترضين، وهذه الأوجه هي:

1- فصاحته وبيانه

وفيه يقول: إنّ هذه الفصاحة معتبرة بشروط، هي:

أ- بلاغة ألفاظه.

ب-استيفاء معانيه.

ت-حسن نظمه[35]. وقد أبسط القول في هذه الشروط، مبيّناً ما به تتقوّم، فقال: ((فأما بلاغة ألفاظه فتكون من وجهين: أحدهما: جزالتها حتى لا تلين. والثاني: انطباعها حتى لا تخبو. وأما استيفاء معانيه فيكون من وجهين: أحدهما: أن يكون المعنى لائحا في بادئ ألفاظه غير مفتقر إلى مقاطعه والثاني: أن يكون المعنى مطابقا لألفاظه فلا يزيد عليها ولا يقصر عنها فإن زاد كان الاختلال في اللفظ، وإن نقص كان الاختلال في المعنى وأما حسن نظمه فيكون من وجهين. أحدهما: أن يكون الكلام متناسبا لا يتنافر والثاني: أن يكون الوزن معتدلا لا يتباين))[36]، وفي هذا النوع إشارة إلى أنّ البلاغة والنظم من مقوّمات الفصاحة، ولا يمكن أن يتّصف نصّ من النصوص بالفصاحة ما لم تكن مبادئه معتبرة بهما.

2-إيجاز اللفظ واستيفاء المعنى، وقد مثّل له بقوله تعالى:((وَقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَيا سَماءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْماءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)) هود44[37]. ولكن يمكن أن يؤخذ عليه، في المقام، إنّ هذا مما تتقوم به الفصاحة العالية، فإذا كان اللفظ فصيحا، فإنّ أعلى مراتبه أن يكون على وجازته مصيباً معناه ، ومن ثمّة فإنّ هذا يُرجعه إلى الوجه الأوّل. ومن جهة أخرى قد يكون هذا الوجه متحققاً في غير القرآن ، وقد تحدّث الجاحظ عن إحدى روائع الإمام عليّ (عليه السلام) : ((قال علي رحمه الله: «قيمة كل امرئ ما يحسن» .

فلو لم نقف من هذا الكتاب إلا على هذه الكلمة لوجدناها شافية كافية، ومجزئة مغنية، بل لوجدناها فاضلة عن الكفاية، وغير مقصرة عن الغاية.))[38]. ولو تمعّنّا أكثر في هذا الوجه لتبين أنّه صفة غير منبسطة في النصّ القرآني كلّه.

3- الأسلوب المميز غير المعهود، إذ يقول فيه: ((ان نظم أسلوبه ووصف اعتداله يخرج عن منظوم الكلام ومنثوره ولا يدخل في شعر ولا رجز ولا سجعة ولا خطبة حتى تجاوز محصور أقسامه وباين سائر أنواعه بأسلوب لا يشاكل، ونظم لا يماثل فصار وإن كان من حروف الكلام خارجا عن أقسام الكلام))[39]، وهذا الكلام، في التدقيق لا يخرج عن المبادئ الجمالية للنظم، فهي التي تعطي للأسلوب هويته، وتميّزه من غير من الأساليب، وأسلوب القرآن يوجهه النظم وسناعة التأليف، وقد استحضر المصنّف ما تتوارده الأخبار في قصّة الوليد بن المغيرة بوصفها حجّة تكشف واقعية الإعجاز من هذا المنزع، فقال: ((حكي عن الوليد بن المغيرة المخزومي وكان سيد عشيرته وأفصح قومه أنه جاء إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على كفره فقال: اقرأوا عليّ شيئا من القرآن فقرأوا عليه فقال: ليس هذا من كلام البشر وليس بشعر، فمضى إليه أبو لهب وقال: أفسدت قريشا بهذا القول فارجع عنه فقال: أقول أنه سحر وقد تعاطاه من الشعراء ما خرج عن أسلوبه إلى طريقة شعره فقال في قصة الفيل:

ألا من مهلك الفيل ومن سار مع الفيل
بطير صبه الله عليهم من أبابيل
رمتهم بجنادل تُرى من طين سجيل
فأضحى القوم في القاع كعصف غير مأكول

فلم يساعده الطبع عليه مع أخذ معانيه واستعمال ألفاظه حتى عاد إلى مطبوع شعره وضمن آخر من الشعراء شيئا منه في شعره فخرج عن أسلوبه حيث يقول:

وقرأ معلنا ليصدع قلبي والهوى يصدع الفؤاد السقيما
أرأيت الذي يكذب بالدين ذاك الذي يدع اليتيما)[40]

فالأسلوب، إذاً هو نتاج تلك الفصاحة العالية والتأليف المميز والنظم البديع.

4- معانيه الكثيرة التي لا يمكن للبشر أن يجمعها، أو يحيط بها، وذكر لذلك وجهين:((أحدهما: ما يجمعه قليل الكلام من كثير المعاني كقوله تعالى: (وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) فجمع في آية واحدة بين

أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين. والثاني: أن ألفاظه تحتمل معاني متغايرة تحار فيها العقول وتذهل فيها الخواطر وتكل فيها القرائح ثم لا تبلغ أقصاه ولا تدرك منتهاه حتى اختلفت فيه الوجوه وتقابلت فيه النظائر))[41]. ولكن إذا كان العرب لا تستطيع الإحاطة بها ، فهي من السالبة بانتفاء الموضوع ، ولا مجال عندئذٍ للتحدّي ؛ لعدم وجود مساحة مشتركة بين الطرفين ، وقد ثبُت في مقام التحديد الاصطلاحي للمفهوم أنّ التحدّي ينظر إلى ثقافة القوم وصناعتهم ، وقد كانت الصناعة المشهورة عند العرب يومئذٍ الفصاحة وحسن النظم ، ولا بدّ في هذا أن يكون الإعجاز بالتغلب على هذا الفن الرائج.

5- الإعجاز من جهة علومه ومعارفة التي لا يمكن للبشر أن تحيط بها، وهذا كافٍ في نسبته إلى الله[42]، ولكنّ هذا النحو من الإعجاز ليس صفة ذاتية للقرآن، فهو يثبت الإعجاز في الحقائق العلمية التي تضمنها القرآن، ولا مزيّة ذاتية له فيها، فيمكن أن تكون هذه المباني العلمية مودعة في كتاب إلهي آخر، ومن ثمّ، فإنّ الإعجاز هنا لأمر خارجي، لا أنّه يكشف الصفة الذاتية التي جعلت القرآن معجزاً. ومن جهة أخرى لا تكشف هذه الجهة البعد الواقعي لثقافة عصر النزول وفنّه الرائج، إذ لم يرد عن العرب أنهم برعوا فيه، أو كانت لهم سابقة فضل حتّى يكون هذا النحو من الإعجاز متسانخاً معه، وقد كان مورداً للتحدّي، ثمّ أين المؤلّف من قول الجاحظ، الذي يؤكّد وجود جهة جامعة في حصول التصدّي، فقال: ((ولما كان أعجب الأمور عند قوم فرعون السحر، ولم يكن أصحابه قط في زمان أشدّ استحكاماً فيه منهم في زمانه، بعث الله موسى (عليه السلام) على إبطاله وتوهينه، وكشف ضعفه وإظهاره، ونقض أصله لردع الأغبياء من القوم، ولمن نشأ على ذلك من السفلة والطغام. وكذلك زمن عيسى (عليه السلام) كان الأغلب على أهله وعلى خاصة علمائه الطب، وكانت عوامهم تعظّم على ذلك خواصهم فأرسله الله (عز وجل) بإحياء الموتى، إذ كانت غايتهم علاج الموتى.... وكذلك دهر محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كان أغلب الأمور عليهم، وأحسنها عندهم، وأجلها في صدورهم، حُسن البيان، ونظم ضروب الكلام مع علمهم له، وانفرادهم به، فحين استحكمت لفهمهم، وشاعت البلاغة فيهم، وكثر شعراؤهم، وفاق الناس خطباؤهم، بعثه الله (عزّ وجلّ)، فتحداهم بما كانوا لا يشكّون أنّهم يقدرون على أكثر منه))[43]، وهذا المعنى نفسه أفاد منه الماوري في نصّ متقدّم، ولكنّه لم يفِ، هنا، بما قدّمه هناك.

إذاً، فالعلم والمعارف لا يمكن أن تثبت العجز عند العرب الذين نزل في ربوعهم القرآن ؛ لأنّه ليس من صناعتهم ، ولم يُعرف لهم تميّز به ، وفي ضوء ذلك يكون التحدّي بلا فاعليّة ، ولا يثبت الإعجاز.

6- إعجازه من جهة الأدلّة والبراهين، فقال: ((ما تضمنه من الحجج والبراهين على التوحيد والرجعة وعلى الدهرية والثنوية حتى قطع بحجاجه كل محتج وخصم بجدله كل خصم ألدّ))[44]، وثمّة جدلية نرصدها بين هذا الوجه وما ذكره من تأسيس مفهومي للإعجاز، فالحجج والبراهين لم تكن عادة العرب آنذاك، حتّى نتخذها ذريعة للتحدّي، ومن جهة أخرى نقول: كون المنطوق ذا حجج وبراهين على التوحيد لا يستلزم الإعجاز، فهذا مما نجده عند الكثير من المتكلمين والفلاسفة، ولو رجعنا إلى مطوّلاتهم لوجدنا الكثير من الأدلة والحجج، فهل يصلح هذا وجهاً نتمسك فيه للإعجاز؟! وليس هذا صفة كلّية للقرآن، فهو ظاهر ببعضه، ولو كان كلامه فيما يخصّ الشكل وطريقة العرض، لكان وجهاً؛ لأنّه يرجع في النهاية إلى النظم والتأليف.

7- إخباره عن الماضي، وفي ذلك يقول: ((ما تضمنه من أخبار القرون الخالية وقصص الأمم السالفة، وما تحداه به أهل الكتاب من قصة أهل الكهف وشأن موسى والخضر وحديث ذي القرنين فكان على ما ذكره أنبياؤهم وتضمنته كتبهم))[45]، وهذا الوجه خارج عن إطار المفهوم في قيده الثاني، وهو وجود المقتضي المتمثل بالثقافة السائدة عند العرب آنذاك، وهو ليس وجهاً يُفسَّر به النصّ القرآني كلّه ، وإن تنزّلنا عن ذلك ، فلا يمكن أن نقبل الإعجاز في كلّ من يخبر عن الماضي ؛ لأنّه يدور مدار الإخبار، ولا علاقة له بأصل النصّ المراد الاتيان بمثله.

8- إخباره عن الغيب، إذ يقول: ((ما تضمنه من علم الغيب بأخبار تكون فكانت كقوله لليهود:" قُلْ إِنْ كانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ" البقرة94، ثم قال: ((وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ)) البقرة 95، فما تمناه أحد منهم، وكقوله لقريش: "فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا" البقرة 24، فقطع بأنهم لا يفعلون فلم يفعلوا وكقوله: "سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ" القمر45، وكان ذلك في يوم بدر وكقوله تعالى في هجرته من مكة إلى المدينة: "إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرادُّكَ إِلى مَعادٍ" القصص85، فأعاد الله إلى مكة عام الفتح إلى غير ذلك من نظائره))[46]، وهذا النحو لم يكن صفة شمولية يتلبّس بها النصّ القرآني كله، فماذا نقول عن الآيات التي لا إخبار فيها عن الغيب؟، ومن جهة أخرى إنّه يجعل الأقسام أوسع من المقسم فيما تبنّاه المصنّف في التعريف.

9- إخباره عما انطوت عليه القلوب والضمائر[47]، وذا من الخارج تخصّصاً، لأنّ العرب لم تشتهر بالسحر ولم يعرف عنهم الإنباء عما في السرائر. فضلا عن ذلك إنها إن قُبلت لا تكون وجها يفسر الإعجاز في القرآن كلّه.

10- ومن الوجوه التي ذكرها: ((أن ألفاظ القرآن قد تشتمل على الجزل المستغرب والسهل المستقرب فلا يتوعر جزله ولا يسترذل سهله ويكونان إذا اجتمعا مطبوعين غير متنافرين ولا نجد ذلك في غيره من كلام البشر لأن جزله يتوعر وسهله يسترذل والجمع بينهما يتنافر فصار من هذا الوجه مباينا وفي الإعجاز داخلا))[48]، وهذا الوجه ليس قسيماً للوجوه بقدر ما نفهم منه الاندراج تحت مفهوم الفصاحة، والتداخل واضح بينهما.

11- الوجه الحادي عشر يخصّ التلاوة، وقد قال فيها: ((أن تلاوته تختص بخمسة بواعث عليه لا توجد في غيره:

أحدها: هشاشة مخرجه. والثاني: بهجة رونقه. والثالث: سلاسة نظمه. والرابع: حسن قبوله. والخامس: أن قارئه لا يكل وسامعه لا يمل وهذا في غيره من الكلام معدوم))[49]. إنّ حديثه عن التلاوة هو نتاج جمال النظم، وما ينتجه من التأثير في المتلقّي، وأرى هذا من تشقيق المفاهيم وتكثيرها، والمنطلق واحد. وقد أفاد محمد شملول من هذا الوجه ، فكتب في إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة ، وهذا البتوجّه مما تفرزه ثقافة التقديس في القراءات المعاصرة.

12- ومما أورده: ((أنه منقول بألفاظ منزّلة ومعان مستودعة وبلغه الملك بلفظه وعلى نظمه وأداه الرسول إلى الأمة بمثله فلم ينخرم فيه لفظ ولا اختل فيه معنى ولا تغير له ترتيب حتى صار من الزلل مضبوطا ومن التبديل محفوظا تستمر به الأعصار على شاكلته وتتداوله الألسن مع اختلاف اللغات على نظمه وصفته لا يختل بتعاقب الأزمنة ولا يختل بتباعد الأمكنة ولا يتغير باختلاف الألسنة، وغيره من الكتب مقصورة على حفظ معانيها وإن غويرت ألفاظها فإن التوراة ألقى الله تعالى معانيها إلى موسى عليه السلام فذكرها بلفظه وعبر عنها بكلامه. وأما الإنجيل فهو ما أخبر به عيسى عليه السلام عن ربه وعن نفسه فجمعه تلامذته بألفاظهم وجعلوه كتابا متلوا. وأما الزبور فأدعية بتحاميد وتسابيح تنسب إلى داود عن لفظه، ولئن كانت معاني هذه الكتب مضافة إلى الله تعالى فليست بصيغة لفظه ولا على نظم كلامه كما نزل القرآن جامعا لألفاظه ومعانيه وترتيبه فصار مباينا لجميع كتبه، وما هذا إلّا بمعونة إلهية حفظ الله تعالى بها إعجازه وأمدّ بها رسوله كما قال تعالى: إِنَّا نَحْنُ

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ الحجر9))[50]، وكلّ من تأمل هذا الوجه، يجده خارج إطار المفهوم، بعناصره الثلاثة: خرق العادة والتحدي والسلامة من المعارضة، فهو من الخارج تخصصاً.

13- الشمولية والتعدد في المعاني في إطار الموضوع الواحد أو السورة الواحدة، وفيه يقول: (من إعجازه اقتران معانيه المغايرة واقتران نظائرها في السور المختلفة فيخرج في السورة من وعد إلى وعيد ومن ترغيب إلى ترهيب ومن ماض إلى مستقبل ومن قصص إلى مثل ومن حكم إلى جدل فلا ينبو ولا يتنافر، وهي في غيره من الكلام متنافرة فتتجانس معانيها وكذلك هي في غيره من الكتب المنزلة مفصلة لكل نوع سفر...))[51]. لا يمكن فهم هذا التقريب على أنّه وجه في الإعجاز؛ لأنّه فاقد لمقوماته، وهو لا يشمل كل السور، فثمّة سور كثيرة فاقدة لها، وهي تتحدث عن محور واحد لا غير كالناس والفلق والإخلاص وغيرها. وهذه الشموليّة والتعدد والعدول إذا لم تكن على النظم المخصوص، لا تدخل في نطاق الإعجاز، فهو صفة ذاتية للنصّ.

14- المشاكلة والنسقيّة، وفيها يقول: ((من إعجازه أن اختلاف آياته في الطول والقصر لا يخرج عن أسلوبه ولا يزول عن اعتداله، وغيره من نظم الكلام ونثره إذا تفاصلت أجزاؤه زال عن وزن منظومه واعتدال منثوره فصار ذلك من إعجازه))[52]، هذا الكلام يمثل إعادة صياغة مفهوم النظم بتشقيق مظاهره، فجمال النظم كائن من اختيار الألفاظ وإيثار المعاني، وضمّهما على طريقة مخصوصة، وهذا المجموع هو الذي ينتج المسلك الأسلوبي في التعبير. أمّا كونه وجهاً مستقلاً فغير صحيح.

15- من وجوه إعجازه: ((أن مكثر تلاوته لا يزاد به فصاحة وإن ازداد بغيره من فصيح الكلام لخروجه عن طباع البشر فمازجها فصار أسلوبه معجزا في الحالين وعلى كلا الوجهين))[53]، هذا الكلام يدور مدار الأثر والاستجابة، ولا علاقة له بالإعجاز، وهو ناظر إلى غير جهة التحدّي، ولو كان الأمر كذلك، وقد زادت فصاحة العرب به، لانتفت الحاجة إلى المعارضة أصلاً، فهم مسلّمون مذعنون، وبه آمنون. ولو تنزّلنا عن ذلك، فإن المضمون في هذا الوجه لا يخرج عن الفصاحة، وقد ذُكر وجه الفصاحة وأثره فيما تقدّم.

16- من وجوه إعجازه تيسيره وسهولة حفظه، وهذه الخاصّيّة غير موجودة في غيره من الكتب[54]، وهنا من حقنا أن نحاكم المصنّف في إيراده التيسير والحفظ وارتضائه وجهاً للإعجاز، فما علاقته بالتحدّي؟ وكيف تكون المعارضة؟ وهل العرب غير قادرين على الحفظ، وإذا كانوا كذلك، فما الجدوى من التحدّي والمعارضة؟! وكيف تكون غلبة القرآن مدعاة لصدق الرسول؟

17- ومما ذكره: ((من إعجازه أن الكلام يترتب ثلاث مراتب منثور يدخل في قدرة الخلق وشعر، هو أعلى منه يقدر عليه فريق ويعجز عنه فريق، وقرآن هو أعلى من جميعها وأفضل من سائرها، تجاوز رتبة النوعين، فخرج عن قدرة الفريقين))[55]، ليس لهذا الوجه صلة بالنوعية، فهو مرتبط بالنتيجة المترتبة على التحدّي والاثر الذي يفرزه ترك المعارضة، فهو لا يفسر السرّ الكامن وراءه، بل يعطي النتيجة، وهذا لا يدخل في التنويع.

18- ومن الوجوه التي ذكرها: ((أن الزيادة فيه ممتازة وتغيير ألفاظه منه مفتضحة ولو كان في القدرة لالتبس ولو أمكن لاشتبه))[56]، هذا الكلام يتحدّث عن مزاياه وخصائصه، ولا دخل له بمفهوم الإعجاز المستقرّ في الثقافة الإسلاميّة، علاوة على ذلك أن المضمون والمحتوى مما يكشف عنه النظم والتأليف المخصوص. ولو أمعنا النظر في هذا الوجه ، لوجدناه لا يتساوق مع الوجه الثاني الذي يتقوّم بالإيجاز ، فالزيادة فضل ، وإن كانت محمودة.

19- ومن صوره ما قال: ((عجز الأمم عن معارضته وقد تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فلم تخرجهم أنفة التحدي وصبروا على نغص العجز مع شدة حميتهم وقوة أنفتهم وقد سفه أحلامهم وسب أصنامهم ولو وجدوا إلى المعارضة سبيلا وكان في مقدورهم داخلا، وقد جعله حجة لهم في رد رسالته لعارضوه ولما عدلوا عنه إلى بذل نفوسهم في قتاله وسفك دمائهم في محاربته))[57]، وأبرز ما يورد على هذا الوجه أنّه لا يختلف عن الوجه السابع عشر، ولا علاقة له بوجوه الإعجاز، لأنه ينظر إلى المآل لا إلى النوعيّة.

20- الصرفة، وقد قال فيه: ((من إعجازه الصرفة عن معارضته واختلف من قال بها هل صرفوا عن القدرة على معارضته أو صرفوا عن معارضته مع دخوله في مقدورهم على قولين: أحدهما: أنهم صرفوا عن القدرة ولو قدروا لعارضوه. والقول الثاني: أنهم صرفوا عن المعارضة مع دخوله في مقدورهم. والصرفة إعجاز على القولين معا في قول من نفاها وأثبتها فخرقها للعادة فيما دخل في القدرة))[58]، وهذا الوجه يتبناه مع أنّه ليس نوعا بل هو يفسّر سبب العجز ومرجعيته. وهو يتناصّ مع الوجهين الرابع والخامس من حيثية عدم الإحاطة ، التي تعني العجز الذاتي في طبيعة الموجود ، فهو مصروف عن المعارضة بحسب الجبلّة التكوينيّة ، وهذا ينافي التحدّي من الأصل.

وهذه الوجوه على التحقيق ترجع إلى ثلاثة أشياء، هي: الإعجاز، والخصائص والمزايا، والحجج والبراهين، وقد جمعها الماوردي معاً تحت مفهوم الإعجاز، وهذا غير تامّ، فالإعجاز هو دليل، ولكن ليس كأيّ دليل، فهو دليل يثبت المدّعى من جهة التحدّي والمعارضة، وهو موقوف على وجود موضوع يكون

ميداناً يشترك فيه الطرفان، تحصل المغالبة فيه لأحدهما دون الآخر، وبعجز الطرف الآخر يحصل الإذعان، ويثبت للأوّل ما كان التحدّي سبباً في وجوده، وهذا النحو من الإجراء أبلغ في الوصول إلى المقصد والمراد. أمّا الخصائص والمزايا، فهي النعوت التي ينطبع فيها الشيء، ولا يشترط أن تكون معجزة، وهي تكون في المعجز، وقد تكون في غيره. والحجج والبراهين طريق موصل إلى الإقناع باتّباع سبل عقليّة ومبادئ فلسفيّة، وهي تقوم على تجاذب الأفكار بين الأطراف، وتكون الغلبة متوقّفة عليها، ولكن لا يُشترط فيها إذعان الطرف الآخر، ولا سيما إذا اتّخذ الحوار طابع الجدل والسجال، أو كانت الأطراف غير متكافئة، خلافاً للإعجاز، فإنّ الطرف الآخر، لا سبيل له إلى الهروب والإنكار؛ لأنّ الأرضية مشتركة فيما بينهما، والاعتراف سببه العجز عن بلوغ المرتبة العليا في موضوع الإعجاز، وهو سموّ النظم وكمال البيان. وبهذا يتبن سمو الإعجاز على غيره من الأدلّة.

هذه المعالجات حفل به كتابه أعلام النبوّة، ومن عتبته يتضح أن الموجّه للدراسة هو كون النبوّة مقاماً إلهيّاً يحتاج إلى شواخص وأدلّة، عند كلّ من يدّعيه، وقد عرض المصنّف مسائل كلامية كثيرة، كمعرفة الإله وإثبات النبوّة العامة والخاصّة من طريق المعجزات، وإقامة البراهين على صحّة الرسالة المحمديّة وغيرها. ولم أجد له شيئا ذا بال في تفسيره النُكت والعيون سوى بعض الإشارات التي يفسّر بها بعضاً من الآيات، ومن ذلك ما ذكره في قصّة النَّبي سليمان مع عرش بلقيس: ((وهذه معجزة لسليمان أجراها الله على يد من اختصه من أوليائه. وكان العرش باليمن وسليمان بالشام فقيل: ان الله حرك به الأرض حتى صار بين يديه))[59].

وقال في كفار قريش يوم بدر في قوله تعالى: ((سيهزم الجمع ويولون الدبر)) القمر 45: ((وهذه معجزة أوعدهم الله بها فحققها))[60]. وفسّر الآية (وآية منك) المائدة 114، في قصة النبي عيسى والمائدة بقوله: (يعني علامة الإعجاز الدالة على توحيدك))[61]، وهكذا في مواضع أخرى.

ومثل هذا الكلام لا يمكن التعويل عليه في تحرير مفهوم الإعجاز، لأنّه فاقد مقوماته، فاستحضار العرش كان من آصف بن برخيا، وهو ليس نبيّاً حتّى يؤيّد بالمعجزة، والإخبار عن النصر في المعركة، يعني التأييد الإلهي وتثبيت القوب، ولا علاقة له بالإعجاز، فضلاً عن ذلك إن براعة العرب لم تكن في غير مجال الفصاحة والبيان، فكيف يقع التحدّي بما لا يملكون. وفي تفسير الآية بالإعجاز تجوز كبير، لا يلتقيان ولا يتصادقان.

وفي الختام أقول. إنّ الإعجاز قد تجاوز إطاره الموضوعي، وابتعد عن حقله المعرفي عند الماوردي وكثير من العلماء، وقد كان النظر إلى الخصائص الفاردة والمزايا المستقلّة التي ظهر بها النصّ القرآني على

أنّها إعجاز شأنها شأن الصفة الذاتيّة المتمثلة بالنظم والتأليف، وإن كانت فاقدة للتحدّي والمعارضة، من باب التّوسّع والمجاز، وهذا يُهدم التقديم النظري الذي طرحه بخوص الإعجاز في مباني الكلام.

الهوامش

1 – ينظر: الأعلام: 4/ 327، ومقدّمة النكت والعيون: 9/1، والماوردي وتراثه العلمي: 2.

2 – ينظر: تاريخ بغداد: 12/ 101، ومعجم الأدباء: 5/ 1955، وسير أعلام النبلاء: 18/ 64، والأعلام: 4/ 327، ومعجم المؤلّفين: 7/ 189.

3 – ينتظر: سير أعلام النبلاء: 18/ 65، ومقدمة النكت والعيون: 9/1، والماوردي وتراثه العلمي: 2.

4 – ينظر: مقدّمة النكت والعيون: 10/1–11.

5 – ينظر: تاريخ بغداد: 12/ 102.

6 – ينظر: تاريخ بغداد: 12/ 102، وسير أعلام النبلاء: 18/ 64، وروضات الجنّات: 5/ 244.

7 – ينظر: الماوردي وتراثه العلمي: 2.

8 – ينظر: معجم الأدباء: 1956/5، وسير أعلام النبلاء: 65/18–66.

9 – ينظر: الأعلام: 327/4

10 – ينظر: معجم الأدباء: 5/ 1956.

11 – ينظر: 7، 10.

12 – ميزان الاعتدال: 166/3.

13 – معجم الأدباء: 5/ 1955، وينظر: سير أعلام النبلاء: 18/ 67.

14 – ينظر: الماوردي وتراثه العلمي: 6.

15 – ينظر: مقدّمة النكت والعيون: 11/1–12.

16– 1 / 470 .

17 – 34/1.

18 – 3/ 32 34.

19 – 712.

* اختلف في سنة وفاته، فقيل ان وفاته سنة 402هـ، وقيل: 500هـ، وقيل: 503هـ، وقيل: 502هـ. ينظر: مقدمة المحقق: 37 38.

20 – 547.

21 – 1 / 179.

22 – ينظر: 63/9 . 64.

23 – القاموس المحيط: 478.

24– الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به: 58.

25 –النكت الاعتقادية: 35.

26– أصول الدين: 170.

27 . الذخيرة في علم الكلام: 328.

28 . السَّابق نفسه: 328.

29 – أعلام النبوّة: 26.

30 – أعلام النبوّة: 69.

31 – السَّابق نفسه: 53.

32 – ينظر: السَّابق نفسه: 25– 28.

33 – السَّابق نفسه: 53.

34 – السَّابق نفسه: 54.

35 – السَّابق نفسه: 54.

36 – السَّابق نفسه: 54.

37 – ينظر: السَّابق نفسه: 55.

38 – البيان والتبيين: 1/ 87.

39 – السَّابق نفسه: 55

40 – السَّابق نفسه: 56.

41 – السَّابق نفسه: 57.

42 – ينظر: السَّابق نفسه: 58.

43 – رسائل الجاحظ: 3/278– 279.

44 – أعلام النبوّة: 58.

45 – السَّابق نفسه: 59.

46 – السَّابق نفسه: 59.

47 – ينظر: السَّابق نفسه: 60.

48 – السَّابق نفسه 60– 61.

49 – السَّابق نفسه: 61؟

50 – السَّابق نفسه: 61–62.

51 – السَّابق نفسه: 62.

52 – السَّابق نفسه: 63.

53 – السَّابق نفسه: 64.

54 – ينظر: السَّابق نفسه: 64.

55 – السَّابق نفسه: 64.

56 – ينظر: السَّابق نفسه: 65.

57 – السَّابق نفسه: 66.

58 – السَّابق نفسه: 67–68.

59 – النكت والعيون:4/ 214

60 – السَّابق نفسه: 5/ 419.

61 – السَّابق نفسه: 2/ 84، وينظر: 2/ 103.

المصـــادر

- أصول الدين، أبو منصور عبد القاهر البغدادي. مطبعة الدولة – إستانبول، ط1، 1928م.
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين- بيروت، ط 17، 2007م.
- أعلام النبوة، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي. دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1986م.
- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، القاضي أبو بكر الباقلاني، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري. المكتبة الازهرية للتراث. ط2 – 2000م.
- تاريخ بغداد، الحافظ أبو بكر البغدادي، دراسة وتحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط2، 2004م.
- الذخيرة في علم الكلام، الشريف المرتضى، مؤسسة التاريخ العربي – بيروت، ط1، 2012م.
- رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي – القاهرة.
- روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات للخوانساري الأصبهاني، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1.
- الصحّاح تاج اللغة وصحاح العربيّة، أبو نصر إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق الدكتور أميل بديع يعقوب، والدكتور محمد نبيل طريفي، دار الكتب العلمية – بيروت ط1، 1999م.
- القاموس المحيط، للفيروز آبادي، إعداد وتقديم محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث – بيروت، ط2، 2002م.
- لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور، تحقيق ياسر سليمان أبو شادي ومجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقية – القاهرة.
- الماوردي وتراثه العلمي، الدكتور قاسم حسن وأحمد جدوع، كلية الآثار جامعة سامراء. بحث منشور على شبكة التواصل الاجتماعي

www.iasj.net/iasj?func=fulltext&aId=129739

- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، تحقيق مجموعة من المحققين، معهد المخطوطات العربية – القاهرة. 2003م.

- المحيط في اللغة، إسماعيل بن عباد الصاحب أبو القاسم، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، 1994.
- مصنفات الشيخ المفيد، أبو عبد الله محمد بن النعمان البغدادي، مؤسسة التاريخ العربي – بيروت.
- معجم الأدباء، ياقوت الحموي، تحقيق الدكتور إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ط1، 1993م.
- معجم المؤلّفين، عمر رضا كحالة، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسن أحمد بن فارس، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 2001م.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الاصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، دار القلم – دمشق، ط3، 1424 هـ.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، شمس الدين الذهبي، تحقيق محمد بركات، دار الرسالة العالميّة – بيروت، ط1، 2009م.
- النكت والعيون تفسير الماوردي، راجعه وعلّق عليه عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية – بيروت، ط2، 2007م.